ناظم الشعر المنسوب الى شكسبير لكن هناك صعوبة عظيمة في اقناع الجمهور بالعدول عن اعتقادهم التقليدي ان شكسبير هو الناظم لا باكون . ولو بُعث شكسبير من رمسهِ واعترف بذلك على رؤوس الاشهاد لم يصدّقهُ الناس

فرددت عليهِ بقولي " ان الباحث عن الحقيقة ينتش عن ضالتهِ المنشودة حتى يجدها فاذا وجدها واعلن ذلك للملا انتهت مهمتهُ ومسأوليتهُ هنا ولا يطالَب باكراه الناس على تصديق رأيهِ اكثر مما يطالب الواعظ باكراه سامعيهِ على قبول نصائحهِ وارشاداتهِ . فقد طالما كان التقليد مضلاً للناس وصحتهُ معرضاً للشك والارتياب ومحطاً للاختلاف . فان كان الجمهور لا يحب ترك التقليد القديم ولا يصدّق ان شكسبير ليس ناظم الشعر المنسوب اليهِ ولو نشر من قبرهِ واعترف بذلك صريحاً فهذه مسألة اخرى لادخل لها في قضية بحثنا "

هذا وان كلّ محبٍّ للحقيقة يتمنى لو يحلّ الخلاف الذي بين الفريقين وتجلي الحقيقة بالبرهان الساطع حتى يستريح عالم الآداب من قضية مضت عليها الاعوام وهي لا تزال اعقد من ذنب الضب واطول من ليل الصبّ . ولعمري اذا ثبت بعد هذا العناء الطويل والنصب الكثير ان باكون هو ناظم الشعر المنسوب الى شكسبير كان ذلك دليلاً على امرين الاول ان باكون نابغة بني البشر اجمعهم لانهُ فاق الاقران وحاز قصب السبق في فرعين مختلفين كلّ الاختلاف لا علاقة للواحد منهما بالآخر وهما الفلسفة والتمثيل وهو ما لم يسبق لهُ نظير في تاريخ البشر . والثاني ان كثيراً من الحقائق لا يزال محجباً بحجب الغيب والريب وان جيوش الوهم لا تزال سائدة مسلطة على كثير من امور البشر مهما تقدموا وتمدنوا فلا يزيل لها صولة ولا يذيل لها دولة غير كثرة البحث وطول الايام

نجيب شاهين

عروسة النيل

(تابع ما قبلهُ)

الفصل الثالث

عادت سفينة المقوقس تشق عباب النيل وعاود ركبها الحديث والغناء واسندت ماري رأسها الى كتف باولين ونامت وطفقت المهذبة تارةً تتأمل الافلاك والنجم ذا الذنب وقد امتلأ قلبها رعباً وتارة تحدق في وجه اوربون وقد سحرها جمالهُ وملك سويداء قلبها وكانما هي تحسد باولين على ما خصها بهِ الله من الحسن والجمال . وكان الليل هادئاً واديم الجو صافياً والنسيم بليلاً

والقمر يحدث في الصدور خفقاناً كما يحدث في البحر مدًّا وجزرًا

وظلَّ اوريون يغني ما تقترحهُ عليهِ باولين وصوتهُ يزداد جلاءً وحلاوةً ورنتهُ وقعًا وتأثيرًا حتى سكرت الفتاة من الطرب ولما طرح القيثار من يدهِ همس في اذنها يسألها عن رأيها في بلادهِ في مثل تلك الليلة وعن احب الاغاني اليها ثم اخذ يصف لها ما اصابهُ من الفرح والدهشة عند ما لقيها في بيت ابيهِ دون سابق انتظار او علم منهُ فزاد ذلك وجدها واجابتهُ على اسئلتهِ همسًا جواب المحبِّ لحبيبهِ . ولما بلغا القصر ومشيا في ظلال الاشجار الغبياء اخذ يدها وضمها الى شفتيهِ فلم تزجرهُ . ثم دخل المنزل فاسرعت الى خالها فلثمت يدهُ وقبلت زوجتهُ خلافًا لعادتها فبهت هذه وحدقت بابنتها وبالفتاة وكأنها قرأت في عيونهما ما اقلقها وادركت ان وراء القبلة سرًّا فلزمت الصمت وحفظت الامر في قلبها لانها لم تأمن جانب زوجها على ما تعرفهُ من ميلهِ الشديد الى ابنة اختهِ حتى اذا ما فرغت من اعمالها البيتية ونقل الخدم زوجها الى مضجعهِ وناولتهُ الدواء لتسكين اوجاعهِ امرت احد الغلمان بملازمتهِ واسرعت الى تخدع ابنها لعلها ان العجلة من الحزم وان التأني في تلك الحال مجلبة للندم فقرعت الباب ودخلت فلقيها بالترحاب والدهشة وهو يحسب لمجيئها الف حساب اما هي فبدأتهُ بالكلام قائلةً ان سلوكهُ وتصرف باولين اقلقاها واجبراها على مخاطبتهِ في امر ذي بالٍ حرمها النوم الى ان قالت ولا اصف مقدار حبي لك فان آمال حياتي وحياة ابيك منوطة بك فاحبّ الاشياء لدينا الآن ان ترتدع عن سيرتك الماضية فقد لقيك ابوك بصدر رحب واوفى ديونك الباهظة فاصبح من الواجب عليك ان تقابلنا بالمثل وانت تعلم اننا قد اخترنا لك عروسًا من فضليات البنات وهي تحبك حبًّا شديدًا فقد قالت امها لي اليوم انك فتنتها فانت الآن قبلة ناظرها وموضوع نجواها وعليهِ فلم يبقَ ثَمَّت مانع يمنع اقترانك بها وهو امنية حياتي وغاية مشتهاي . فاجابها اوريون

— نعم يا أُماهُ ولكن لا تعلقي كبير امل على ما جرى بيننا فان معاملتي هذه للنساء اصبحت فيَّ عادة ولكنني ساقلع عنها فقد حان لي ان ابدأ حياة الجدّ

— فقالت ولكنَّ هذا ما نبغيهِ نحن ايضًا فكل الامر اليَّ وغدًا انجزهُ على ما تروم فالفتاة عالقة بحبك وهي مهذبة الصفات كريمة الاخلاق وستجد فيها مثالاً للزوجة الفاضلة هذا فضلاً عن انها ذات ثروة طائلة

— صحيح ما تقولين يا أُماهُ على اني است بطامع الى ثروتها فلتحرص عليها . فغضبت أُمهُ وصاحت بهِ قائلة

— بربك خلّ الهزل لاوقاتهِ فنحن الآن في طور الجدّ فما الذي يمنعك من الاقتران بها وقد اجتمعت الحسن والرقة والاخلاص العلّك خلّفت فؤادك في القسطنطينية او اغوتك نسيبة الوزير يوستينوس

— كلاّ يا أماهُ فقد غادرت تلك المدينة ومن فيها ولم يبقَ من ضفاف البسفور في ذهني الاّ رسمٌ ضئيل على اني لقيت تحت سقف بيت ابي في منف ما هو اجمل من فاتنات العاصمة واعلمي ان كاترينا لا تصلح زوجة لي وانا فرع الجبابرة الكرام وعلينا ان نحافظ على نسلنا كي لا يشوبهُ شيءٌ من الضعف فنحط الى طبقات العامّة ولا اريد الاقتران الاّ بفتاة تشبهك ايام صباكِ طولاً وجمالاً ووقاراً اما وقد برح الخفاء فانا لا اتزوّج سوى باولين ابنة ذلك القائد العظيم فهي عروسي التي اخترتها لنفسي فامخينا بركتك وشاركينا في سعادتنا

وكانت امهُ اثناء حديثهِ تنقلب على احرّ من الجمر فلما فرغ من الكلام احتدمت غيظاً وانقطع نطاق صبرها فاحمرّ وجهها غضباً وصاحت بهِ

— ألا قف يحقك ولا تزد أغاب عنك ان هؤلاء الملكيين هم سافكو دم اخويك وان الروم يحتقروننا ولا يؤدون لنا واجب الاحترام على اننا زعماء المصريين ابليق بحفيد مينا العظيم وابن المقوقس الحكيم وشقيق شهيدين سفكا دمهما دفاعاً عنهُ دينهما ان يتزوج يونانية ملكية اتقضب والدك وتستحق قلب امك اكراماً لهذه المتحجرفة المعوزة التي تجسر ان تحيي امك بمثل ما يحيي بهِ العبد أنجرم لاجلها ولدنا وهو البقية الباقية لنا ومنتهى آمالنا في الدنيا . لقد كنت جميع دهرك عنيداً يا اوريون لكنني لا اخالك تعصينا في هذا الامر الى هذا الحدّ نحن اللذين سهرنا على حياتك وراحتك اربعاً وعشرين سنة . واذكر اباك العليل فان ايامهُ معدودات واذكر والدتك التعيسة التي اتخذتك عضداً لها وعكازاً لشيخوختها اتطرحني لفتاة رايتها منذ يومين وتنسى حبّ الامّ وحنوها ورأفتها اما اذا دفعك الطيش الى ارتكاب هذا الجرم فاني اقسم بمن لهُ الملك والملكوت لانزعنّ حبك من قلبي ولا طرحنهُ عني كما تقلع الاعشاب السامّة ولو كان في ذلك انقضاء عمري ونحو سعادتي

فذعر اوريون لكلامها واضطرب لاضطرابها فطوّق عنقها بذراعيهِ وقبّل جبينها وقال لا سمح الله ان اجازيكما هذا الجزاء بعد الذي فعلتماهُ بي ثم امسك يديها وقال ما راعني قط مثل كلامك ان اسمك مشتق من الحنو ولكنك قريبة الغضب والقسوة . وعاد يقبلها ويطيب قلبها الى ان هدأ روعها فكافها ان تتولّى عقد خطبتهِ على كاترينا على ان لا تفعل ذلك الاّ بعد يومين ظنّاً منهُ ان في التأجيل باباً للفرج . فارضى ذلك امهُ فودعتهُ وعادت من حيث اتت

وتركتهُ يتقلب على فراش الهواجس والبلابل يتنازعهُ عاملا حبهِ لباولين وحبهِ لوالديهِ وحقهما عليهِ . ورأى بعينيهِ خيبة الامل ماثلة لديهِ فاخذ يعزي نفسهُ بما حضرهُ من اسباب السلوى و يسرد لنفسهِ اسماء اللواتي علقهنَّ ثم ملهنَّ وهو يحسب كل واحدة اهلاً لان تكون زوجتهُ لكن ذلك لم يبرّد غليلهُ لان حب باولين تمكن من فؤادهِ وعلم ان سعادتهُ في الحياة لا تتم بدونها فاخذ يضرب اخماساً لاسداس ويلوم العناية التي قدرت ان تكون الفتاة ملكية وحار كيف انها على لطفها ودعتها لم تستمل اليها قلب والدتهِ

ولما فارقتهُ امهُ اسرعت الى مخدع باولين فلما دخلتهُ شعرت هذه بغرضها من الزيارة في تلك الساعة فتدرعت بالصبر واظهرت الجلد اما هي فاعلنت لها خطبة اوربون لكاترينا وامارات الظفر والفوز بادية في وجهها فتبسمت باولين وتمنت للخطيبين الهناء والسعادة ودعت لخالها واهل بيتهِ بالرخاء وطول العمر. حتى اذا ما خلت بنفسها بعد خروج امرأة خالها فارقها الجلد وخانها الصبر فتنفست الصعداء والقت نفسها على سريرها وبكت بكاء مرا ثم مسحت عينيها وتنبهت فيها عاطفة عزة النفس فعزمت على احتمال هذه النكبة بالسكون وقضت ليلتها تتقلب على مثل الجمر وتفكر في غير الدهر فتمثلت لها الحياة سلسلة من المصائب والاحزان لا تنتهي حلقاتها الاَّ في القبر

وكان المقوقس يحب باولين ويقدرها حق قدرها ويتمناها عروساً لابنهِ لكنهُ لم يخفَ عليهِ كره زوجتهِ لها وادرك ان مذهبها سيحول دون تحقيق امانيهِ وتسلطت زوجتهُ على امياله وتغلبت على افكارهِ فلم يشأ مخالفة رفيقة عمرهِ وسند شيخوختهِ وايقن انها لا تحول عن عزمها وعلم ان كرهها لابنة اختهِ لا تزيدهُ الايام الاَّ شدةً وفطنت زوجتهُ الى ميلهِ فلم تطلعهُ على ما دبرت من المكايد ولم تخبرهُ بما فعلت تلك الليلة

الفصل الرابع

وفي مساء اليوم التالي وفد التاجر هاشم وبعض جماعتهِ على قصر المقوقس يريدون زيارتهُ فاذا بهِ غاصٌّ بالقصَّاد واصحاب الحاجات والدعاوي حافل بالخدم والحشم وعلى احد ابوابهِ حرس المقوقس من الجنود المصرية وقد انتشر العبيد والاماء في ضواحيهِ يستقون الماء من النيل ويتنشقون النسيم البليل بعد ان ازهق حرّ النهار النفوس وانقسم العتقاء منهم جماعات يتضاحكون و يتسامرون و يغنون

وكان المقوقس على جانب عظيم من الثروة ولهُ املاك واسعة في مصر العليا والسفلى يتولى زراعتها والعناية بها الوف من عبيدهِ. ولما كان المصريون حديثي العهد بالفتح الاسلامي و يجهلون

اخلاق العرب واميالهم انفوا ان يلجأوا اليهم في التقاضي وفض الخصومات والنظر في الدعاوي وابوا الاَّ ان يكون المقوقس الحكم المطلق في امورهم كسابق عادته فارتضاهُ المسلمون والياً للمصريين لثقتهم بعدله ونزاهته وخبرته باحوال البلاد واخلاق اهلها فظلَّت ازمَّة الامور في يديهِ وهو يتولى الاحكام باسم الخليفة واسم قائد جيوش المسلمين عمرو بن العاص . فاكبر هاشم سطوة المقوقس وجاههُ وثروتهُ وعجب كيف يستطيع على ضعفهِ وعلتهِ ان ينظر في جميع ما يرفع اليهِ من الدعاوي على كثرتها في عام رديء الفيضان يشتد فيهِ العوز ويكثر فيهِ القصَّاد وطلاَّب الاعلات واصحاب الحاجات وتتقاطر وفود الاقاليم . فاخذ يرقب الداخلين الى المجلس والخارجين منهُ حتى اتى على آخرهم ولم يبقَ بالباب سوى رجل فقير الحال رث السربال لم يتمكن من المثول بين يدي الحاكم لضيق ذات يدهِ وعدم استطاعتهِ دفع الجعل المعتاد الى الحاجب فلما ارفضَّ الجمع امرهُ هذا ان يعود في الغد ودعا التاجر ان يدخل الى قاعة الزائرين احتراماً لهُ واكراماً للدينار الذي نقدهُ اياه الدليل امس فابى هاشم الدخول قبل ان تقضى حاجة الرجل والحَّ في طلبهِ فاجابهُ الحاجب الى ذلك ولم يكن الاَّ كلا حول ولا حتى عاد الرجل مبتهجاً مسروراً فقبَّل يد التاجر وشكرهُ على معروفهِ وانصرف . فحينئذٍ تقدَّم هاشم وبين يديهِ بعض غلمانهِ يحملون القطيف فساروا بهِ الى غرفة الانتظار حتى يصدر لهم الاذن في المثول بالحضرة وكان المقوقس بعد قضاء الاعمال قد جلس يلعب الشطرنج مع ابنة اختهِ في غرفة تطلُّ على النيل وسقفها مكشوف يغطونهُ في النهار بمظلة تقي من تحتها حرَّ الشمس اللاذع ويزيحونها في الليل التماساً للبرودة وارضها مصنوعة من الفسيفساء المنزلة في الزجاج المذهب وجدرانها مبطنة بالخزف الصقيل وفي وسطها حوض من البرفير فيهِ نكت بيضاء ينصب اليهِ الماء من نوفرة ترفعهُ في الهواء فيبردهُ ولم يكن في الغرفة من الاثاث سوى بعض المقاعد والكراسي والموائد واكثرها مصنوع من المعادن المصقولة وقد تدلى في زواياها مصابيح كثيرة لانارتها

ولما ابتدأ اللاعبان وقف اوريون وراء باولين واخذ يتأملها والنسيم يعبث بغدائرها فينشرها ويلفها وهي لا تبالي وحاول ان تعيرهُ النفاتة فلم تفعل واخيراً عرض عليها ان يأتيها بمنديل تطرحهُ على عنقها اتقاء البرد فرفضت بتاتاً دون ان تشكرهُ وتخفي عليهِ سبب نفورها منهُ لانهُ كان لا يزال يجهل ما فعلت امهُ في الليلة البارحة . ولم تكن معاملة باولين لهُ في النهار احسن منها في المساء فاذا دنا منها نفرت او سألها سؤالاً يريد بهِ اطالة الحديث اجابتهُ على سؤالهِ سلباً او ايجاباً كانها تروم التخلص منهُ . فبهت لهذا السير الغريب الذي لم يعتدهُ قبل اليوم فقال في نفسهِ لقد صدقت والدتي في ما قالتهُ عنها فانها متكبرة متغطرسة ولولا شفاعة

جمالها الفتان لما اطلقت كبرياءها وترفعها عني الى هذا الحد فهي الآن اشبهُ شيء بصنم لولا حركاتها فما الحيلة في كسر شوكة تعجرفها . ولاحظت امهُ اضطرابهُ فارادت ان تشغلهُ عنها فاخذت تلقي عليهِ الاسئلة تباعاً وترسلهُ الى غرفتها لقضاء بعض الحاجات وهي تفكر في ما طرأ عليهِ من التبديل في ذينك اليومين وشرعت تراجع تاريخ حياتهِ من يوم ذهب الى القسطنطينية الى يوم عادمنها شاباً غض الاهاب طيب السريرة سليم النية بطبع سلس وحب لاهلهِ شديد ولم تفسد اخلاقهُ ملاهي تلك المدينة العظيمة بل اكسبتهُ اختباراً ودقة نظر حتى اذا جلس يناقش اباهُ في الامور السياسية والادبية ادهشهُ بفرط ذكائهِ وحدة ذهنهِ وسمو معارفهِ وحسن سردهِ للحقائق وايضاحهِ للخفيّ منها ولما اطلعت اباهُ على ما خلّف وراءهُ من الديون وقلبها يخفق خشية ان تأخذهُ سورة الغيظ تبسم وفتح خزانتهُ وعدَّ الدراهم عن طيبة خاطر قائلاً ان ما اكتسبهُ الشاب في غيابهِ يساوي اضعاف ما انفقهُ . وسرَّهُ من ابنهِ انفاقهُ ما ادَّخرهُ في ما يزيد شأنهُ ويرفع قدرهُ في عيون الناس واعجبهُ اقتناؤهُ جياد الخيل وفوزهُ في حلبة السباق وشرح صدرهُ ما شاهدهُ فيهِ ما سمات العافية ودلائل النشاط البادية في وجههِ المشرق وعضلهِ المجدول فقال لزوجتهِ لقد احسن ابننا في ما فعل فان مئة وزنة لا تفقرني وقد شخت ولم تبقَ بي حاجة الى المال فلينفق عن سعةٍ ان مالي كان كثيراً والذي يزيدني حباً لهُ وتعلقاً بهِ ما نمى اليَّ من اخبارهِ ايام كان في القسطنطينية فقد كتب اليَّ بعض من اعرف هناك يقول انهُ كان فيها محلى الاكرام والاعزاز يصدرونهُ في الحفلات والولائم والسباقات وقد اعترف لهُ شبان العاصمة بالسبق والميزة عليهم ومن كان كذلك فالمال اقلُّ ما يكافأ بهِ

والحقيقة ان اوريون على جمالهِ وغناهُ لم ينغرط في معيشتهِ في عاصمة الملذات والملاهي ومع انهُ قضى فيها سنوات عديدة حذق في خلالها اليونانية وآدابها وتفقه باشعارها واقتبس عادات اهلها واخلاقهم فعاشرهم ومازجهم لكنهُ لم ينسَ بلادهُ بل ظلَّ مصرياً بحتاً يخفق قلبهُ لذكرى وطنهِ فيفرح لفرحهِ ويتألم لمصائبهِ ويتمنى لهُ الخير ولاهلهِ السعادة وكان يجاهر بمبادئهِ هذه في المجالس ويصف شوقهُ الى مصر واعجابهُ بها . ولم يغادر القسطنطينية الاَّ بعد ان اصبح مقامهُ فيها محفوفاً بالمخاطر لان اليونان لم ينسوا ما فعلهُ ابوهُ من تسليم مصر للمسلمين دون حرب ولا جلاد فارادوا الايقاع بالابن اخذاً بثارهم من الاب ولم يفلت من ايديهم الا بمعونة بعض اصدقائهِ من كبارهم الذين لما دروا بما يحيق بهِ من الخطر اوعزوا اليهِ ان يرحل الى بلادهِ ففعل ولما اجتمع بابيهِ اراد هذا ان يسير غورهُ اذ خشي ان مقامهُ الطويل بين اليونان وما تعلمهُ منهم يغيران قلبهُ فيحولانهِ عن حب بلادهِ وتقاليدها فالفاهُ مصرياً لا غشَّ فيهِ وابنًا لم

ينسَ ما سمعهُ من عبارات الازدراء بابيهِ وبلادهِ ولم تغب عنهُ ذكرى مقتل اخويهِ فازداد ابوهُ تعلقاً بهِ واحتراماً لمبادئهِ وادرك ان ابنهُ سرُّهُ وانهُ كفوهُ لتولي المناصب وادارة الاعمال

جميع هذه خطرت ببال نفوس وهي تحدّث والدة كاترينا وتجاملها بغية ان تصرف نظرها عن سلوكهِ الغريب وفيما هما كذلك التفتت اليها الاخرى وقالت

— الا ترانا ابنة اخت زوجك اهلاً لحديثها

— كلاَّ فهي طباعها السيئة لا تحول عنها ولا تروم تبديلها باحسن منها على انني اشتهي ان نرحل عنا الى حيث تطيب لها الاقامة فاذا ارادت الرحيل فلن تجد مني عائقاً. ثمَّ سألتها عن كاترينا. فاعتذرت عن غيابها بان في بيتهم ضيوفاً من انسبائهم فاضطر ذلك الفتاة على البقاء معهم مع انها كانت تفضل قضاء السهرة في القصر. فلم تفت هذه العبارة الاخيرة اوربون فدار الى المتكلمة وسألها عن ابنتها قائلاً لقد وعدتني امس ان تصنع طوقاً لكلبي فهل فعلت يا ترى

— فقالت أمهُ نعم وقد علمتُ انهُ ازرق يمثل لون السماء وقد رصعتهُ بنجوم ذهبية على اني اخطأت في البوح بسرها لانها ارادت ان تفاجئك بهِ على غير سابق انتظار. وظلّوا يتحدثون على هذا النمط الى ان عاد اوربون الى موقفهِ الاول وراء باولين يرقب لعبها ويدلها على مواقع الضعف فيهِ وينبهها الى نقل القطع وهي لا تزداد الا نفوراً منهُ وعناداً فاذا اشار بامرٍ فعلت عكسهُ اظهاراً لكدرها ولم يفت الحاضرين اهتمامهُ بها وعدم احتفائها بهِ فلما انتهى اللاعبان من الدور الثالث رمى المقوقس القطع على اللوح ودنا منهُ الحاجب فاخبرهُ ان التاجر العربيّ بالانتظار فامرهُ بادخالهِ الى المجلس ثم جذب أذيال قفطانهِ اليهِ والتفت الى الباقين فقال

— عفواً فقد طوقتموني بجميلكم لانكم احتملتم البرد لاجلي والغالب في الشيوخ ان يكونوا كالاطفال في حب الدفء ونور الشمس اما انا فلستُ كذلك واراى حرَّ هذا الصيف شديداً لا يطاق وذلك مما يزيد في اوجاعي وآلامي وطالما تمنيت يا باولين ان يكون لي فراش من الثلج كالذي يقع في جبال لبنان حيث كنتُ اذًا لكنت اتمرَّغ فيهِ فيخف بعض ما بي فان هذا البرد الذي تكرهونهُ حبيبٌ اليَّ لكنَّ حرارة الشباب لا تطيق البرودة

وكان اوربون يصغي الى ابيهِ باحترام واهتمام شديدين فلما لفظ العبارة الاخيرة تبسم وقال

— ولكنَّ من الناس من لا يزال في سنّ الشباب وهو يجد راحة في برودة العواطف لسبب لا يعلمهُ الاَّ الله. قال هذا والتفت الى باولين كانهُ يشير اليها في كلامهِ فحوَّلت وجهها عنهُ وبدا الغضب في عينيها ثم مشت والعظمة والجلال يطيفان بها فلما بلغت الباب حيَّت الجميع تحية المساء وانصرفت نحو غرفتها وامر اوربون الخدم ان يقفلوا الباب المطلّ على النيل وان يعيدوا المظلّة فوق السقف

الفصل الخامس

دخل هاشم ووراءهُ بعض اتباعهِ يحملون القطيف حتى فرشوهُ بين يدي المقوقس فلما رأى هذا رستمًا وابصر خنجرهُ الطويل وفأسهُ الكبيرة ذعر من طول قامتهِ وعرض منكبيهِ وكثافة شعرهِ فصاح بالحاضرين

— اخرجوهُ وابعدوهُ عني فلن استطيع البقاء هنا حتى يغيب عن وجهي. واخذ يرتجف وبدأ الخوف والجزع على وجههِ وكان فؤادهُ يهلع لرؤية الجبابرة والسلاح لان احد منفي اليونان حاول مرة اغتيال حياتهِ. ولما خرج رستم سكن جاشهُ وثاب الى الهدوء واقبل عليهِ اهل بيتهِ يلاطفونهُ ثم اخذوا يتأملون في القطيف فاكبروا ما فيهِ من دقة الصنعة وكريم الحجارة وجودة النقش. ومن خبر هذا القطيف ان العرب غنموهُ فيما غنموا من ايوان كسرى في المدائن وكان طولهُ ثلثمائة ذراع وعرضهُ ستون ذراعًا فلما استولى عليهِ العرب قطعهُ عمر بن الخطاب قطعًا فرقها بين الصحابة فاصابت هذه القطعة عليًّا واخبرهم هاشم انهُ رأى القطيف بتمامهِ معلقًا في ايوان كسرى قبل ان يحمل منهُ الى المدينة[1] ولما فرغوا من تأملهِ قال لهُ المقوقس

— بكم تبيعني هذه القطعة فقُل ولا تدع بابًا للمساومة

فقال ابيعها باربعمائة الف درهم

فهزئ نفورس راسها واومأت الى زوجها ان لا يبتاعها وقال اوريون

— لكنها قد لا تساوي سوى ثلاثمائة الف درهم فاجابهُ التاجر

— سألني ابوك ان لا اساوم ففعلت ولو كنتَ خبيرًا بالجواهر لعلمت ان هذه اليواقيت التي تمثل العنب وهذه اللآلي التي تمثل زهر الآس وهذه الماسات الراقدة كالندى على العشب وتلك الزمردات التي اعارت الاوراق خضرتها — لاسيما وسطاهنَّ — تساوي اكثر مما طلبت

— اذًا فعلامَ لا تنزعها جميعًا وتبيعها على حدة

---

(١) ذكر ابن الاثير في الكلام على غنائم المدائن ان القطيف بساط واحد طولهُ ستون ذراعًا وعرضهُ ستون ذراعًا مقدار حرب كانت الاكاسرة تعدهُ للشتاء اذا ذهبت الرياحين شربوا عليهِ فكأنهم في رياض فيهِ طرق كالصور وفيهِ فصوص كالانهار ارضها مذهبة وخلال ذلك فصوص كالدر وفي حافاتهِ كالارض المزروعة والارض المبقلة بالنبات في الربيع والورق من الحرير على قضبان الذهب وزهرهُ الذهب والفضة وثمرهُ اشباه ذلك وكانت العرب تسميهِ القطيف فلما قدمت الاخماس على عمر نقل منها من غاب ومن شهد من اهل البلاء ثم قسم الخمس في مواضعهِ ثم قال اشيروا عليَّ في هذا القطيف فمن بين مشير بقبضهِ وآخر مفوض اليهِ ... فقطعهُ بينهم فاصاب عليًّا قطعة منهُ فباعها بعشرين الفًا وما هي باجود تلك القطع

— ذلك لاني اكره ان افسد هذه الصنعة التي افرغ فيها امهر الصناع جهدهم فاما ان ابيع القطعة كما هي او لا ابيعها ابدًا فاومأ المقوقس الى زوجهِ وابنهِ بالسكوت ثم عمد الى لوح صغير فاخذهُ وكتب عليهِ شيئًا وقال للتاجر

— لقد تمَّ عقد البيع بيننا فخذ هذا اللوح الى نيلُس خازننا وهو ينقدك الثمن وتكرَّم الآن فصف لنا بعض ما تعرف عن هذا القطيف قبل تجزئتهِ

فتناول التاجر اللوح ودسهُ في منطقتهِ ثم قال

— كان في ايوان كسرى قاعة تسع بضعة الوف من الضيوف ماخلا مئة جندي يحرسون العرش وقوفًا على جانبيهِ وكان القطيف معلقًا فيها وقد سمعت ان الحاكة والمطرزين والصاغة الذين صاغوهُ كانوا كعدد ايام السنة وانهم قضوا ستين سنة يعملون فيهِ والصورة ياسرها تمثل جنة الخلد عند الفرس باشجارها وازهارها واثمارها وانهارها وجميع ما فيها فاذا تأملتم سيفي ما امامكم الآن ترون جزءًا من السلسبيل اذا نظر اليهِ الرائي من بعيد حسبهُ بما عليهِ من الجوهر ماء جاريًا وهذه اللآلي تمثل زبد الامواج وهذه الاوراق جزءٌ من هذه الوردة التي كانت بجانب السلسبيل والفرس يعتقدون ان لون الورد الاصلي ابيض فلما رأى بعضهُ المرأة وقد اشرق جمالها وبدا بياضها الناصع احمرَّ خجلاً فكان من ذلك الورد الاحمر وقد كانت هذه القطعة في وسط القطيف والرسوم عليها يمثل يوم الحشر على زعم الفرس والناس فيهِ فرق ثلاث الفرقة اتباع اهريمان وقد طاروا من وجه الجن الذين عدوا وراءهم ليقبضوا عليهم والبررة اتباع اورمزد وهم اهل الجنة الخالدون فيها والمتمتعون باطايبها والفرقة الثالثة ارواح الذين لم يستحقوا الثواب ولا استوجبوا العقاب ومقام هؤلاء في غابة كثيفة مظلمة . وقد تلقيت هذه التفاصيل عن احد كهنة المجوس العارفين باسرار دياناتهم واثمن ما في القطعة هذه الزمردة التي اشرت اليها . فصاح اوريون

— لقد اصبت فكم ثمنها يا ترى . فقال ابوهُ

— انها ثمينة جدًا على انها واخواتها حقيرة في جنب الغاية التي ابتغتها لاجلها وجميعها ليست اهلاً لمن عزمت على اهدائها اليهِ . فقال اوريون

— لعلك تريد ان تهديها الى القائد الكبير عمرو بن العاص

— كلاَّ ياولدي بل الى اكبر من عمرو فهي تقدمتي الى خالتي

فلم يرق ذلك في عيني ابنهِ بخلاف امهِ فانها اسرعت الى زوجها وقبلتهُ فرحةً وقالت لهُ لقد احسنت فالاهتمام بنفسينا اولى من حشد الاموال ورضا الله خير من تمزيق البيوت

وزخرفتها بنفيس الجواهر وثمين الرياش بارك الله فيك . واحسَّت ان حملاً ثقيلاً زال عن عاتقها . فلم يفه زوجها ببنت شفة لكنهُ هزَّ رأسهُ وامر الخدم فلفوا القطيف وساروا بهِ الى بيت التحف بتقدمهم اوريون فوضعوا حملهم فيهِ واقفلوا الباب فاخذ اوريون المفتاح ووضعهُ في جيبهِ ولما عاد الى المجلس امر المقوقس حاجبهُ ان يأخذ هاشماً واتباعهُ الى دار الضيافة وتفرقت الجماعة كل في سبيلهِ

الفصل السادس

كان المقوقس في عنفوان شبابهِ قويّ البنية طويل القامة شديد البأس صبوح الوجه لكنَّ الهمَّ ادركهُ في شيخوختهِ فاضعف جسمهُ ونخر عظامهُ وسرَّد وجههُ وخلفهُ عرضة للاوجاع والاحزان فاصبح قلق المضجع مضطرب البال مشتت الافكار ضعيف العزم فانهُ قضى دهرًا طويلاً يعلل النفس بالانتقام من قاتلي ابنيهِ ومضطهدي أمتهِ وكأن حياتهُ شجرة ماؤها حبّ الاخذ بالثار فلما ظفر بهم ودفع البلاد غنيمة باردة الى غزاة المسلمين وقضى لبانتهُ من اليونان وألبسهم لباس الخزي والعار بعد عزهم ومنعتهم وظن انهُ قام بالواجب عليهِ وان كاس العيش صفا لهُ بعد طول تمكره اذا بالسكينة والراحة فارقتاهُ وتسلطت عليه الاوهام وملكهُ الخوف والجزع وأصاب به صوت الضمير مقرعًا وموبخًا وسدًى حاول ان يبرئ نفسهُ من تبعة عملهِ بحجة تجزهِ عن الدفاع عن البلاد وردّ العرب البواسل عنها وافضلية سياسة المسالمة بدل مناضلتهم في ساحة القتال فلم يغنِ ذلك فتيلاً ولم يخفف شيئًا عمَّا المَّ بهِ من الهم والغمّ ولما لم يكن بالطبع من عظام القوَّاد الفاتحين او من كبار الرجال المصلحين الذين يغيّرون سير التاريخ بافعالهم وتعاليمهم ذعر لفعلتهِ وتعاظم جرمهُ في عينيهِ فتمثلت لهُ الوف النفوس التي قضي عليها زورًا وبهتانًا وسفكت دماؤها هدرًا فاراد ترضي العزة الالهية بالتقادم والعطايا لعلَّها تفرج كربتهُ وتخفف بعض جرمهِ وزاد في همهِ غضب بطريرك كنيستهِ واتهامهُ اياهُ بمالأة المسلمين مع ان هذا البطريرك كان اكثر الناس سرورًا بقدومهم اذ انقذوهُ وقومهُ من ربقة عبودية اليونان واطلقوا يدهُ لينظر في شؤون ابناء ملتهِ الدينية الامر الذي لم يتسنَّ لهُ قبل احتلالهم وادي النيل

وكان الذين يأخذون الامور بظواهرها يحسدون المقوقس على ما اصابهُ من العز والغنى واتفق لهُ عند الفتح من الحوادث ما يزيد عادة في فرح المرء وسعادتهِ فورث عن احد انسبائهِ تركة طائلة وعثر عبدهُ على كنوز نفيسة في المدافن لم ترَ مثلها عين واجمع مجلس منف على تلقيبهِ بالعادل واقرَّهُ الخليفة وعمرو بن العاص على ولايتهِ وعملهِ وفوَّضا اليهِ النظر في امور

مواطنيهِ والحكم فيها وكان اهل بيتهِ يجلونهُ و يحترمونهُ ويحبونهُ وكلهم يبذلون النفس والنفيس في مرضاتهِ وكانت رسائل ابنهِ تأتيهِ من القسطنطينية حاملة بشائر الفوز والسبق فتملأهُ بهجة وحبورًا وحفيدتهُ ماري تخفف بعض حزنهِ على ابيها وعمها بلطفها ومحبتها فكأنها ملاك العزاء يضمد الجراح ويجبر كسر القلوب هذا فضلاً عن اقبال مواسمهِ وتكاثر مواشيهِ وتمكن هيبتهِ من اهل بلادهِ لكنَّ هذه جميعاً زادت في تنغيص عيشهِ ولم تورثهُ سوى القلق والاضطراب فاصبح نهارهُ سلسلة جواهس وليلهُ احلامًا مزعجة

ولما رقد في مضجعهِ تلك الليلة التفت الى زوجتهِ وقال

— اين باولين فاني لا اراها هنا كالعادة فهل ذهبت المسكينة الى فراشها قبل الميعاد

فقالت دعها وشأنها فقد ضاق نطاق صبري عن ان يسع عنفوانها وتغطرسها فقد آويناها شريدة طريدة فكان جزاؤنا الاحتقار والاهانة وكنا نحن انزل آمالهُ بوادٍ غير ذي زرع ولا يصعب عليَّ الترحيب بجميع انسبائك لا سيما المعوزين منهم فاهلاً وسهلاً بهم ولكن هذه الفتاة تحرجني وانا بشرٌ فاذا اجتمعت بها في غرفة واحدة شعرت ان خطرًا عظيمًا يتهددني واهل بيتي وزد على ذلك ان اوربون يميل اليها ميلاً يقرب من الحب وهو ما اخشى عاقبتهُ فليتها تفارقنا على عجل وتذهب الى حيث تكون بأمنٍ من شرّها

فانتهرها زوجها ونظر اليها نظرة المؤنب ثم اراد الكلام فلم يستطعهُ لان الافيون الذي اعتاد تجرعهُ عقد لسانهُ فاغمض عينيهِ ونام نومًا ثقيلاً وكان يفيق ساعة فساعة ويجيل عينيهِ في انحاء الغرفة كمن اضاع شيئًا وهو يبحث عنهُ لان باولين اقامت على خدمتهِ في السنتين الاخيرتين فكانت تجلس الى سريرهِ اذا اراد الرقاد فتحدثهُ وتوانسهُ بلطفها وتمرّضهُ كانهُ ابوها فيرتاح لحديثها ويطرب لصوتها فكانت ترياقًا لعلتهِ ومخففًا لكربتهِ فلما غابت عن ناظرهِ تلك الليلة افتقدها مرارًا وهو يحسب انها تعود

اما باولين فلما غادرت المجلس اسرعت الى غرفتها وقد اتقدت نار الغيظ في وجنتيها وعينيها اذ اتضح لها ان اوربون يريد ان يعبث بفؤادها فوجدت النوافذ مقفلة والغرفة كالاتون وكانت قد امرت الجواري ان يفتحن النوافذ بعد الغروب فاغفلنَ امرها لانهنَّ لاحظن كره سيدتهنَّ لها فلم يعدن يحفلن باوامرها شأن الخدم في مثل هذه الاحوال فصبَّت بعض الماء لتبرد بهِ وجهها وتغسل عينيها فاذا بهِ كالماء الغالي فاسودَّ النور في عينيها وتذكرت ربوع الشام وجبال لبنان حيث كانت تقضي ايام الصيف في ظل ممدود وهواء عليل وماء نمير وحنَّت الى ابيها وغابر عزها وتمنت لو تعود تلك الايام برخائها وطيبها واخذت تقابل بين رغد الحياة في تلك

الربوع ايام كانت عزيزة الجانب مرعية المقام وبين ما تقاسيهِ من جور زوجة خالها فتنفست الصعداء وانهمرت الدموع على خديها ثم فتحت نوافذ الغرفة ولفت راسها بقناع وخرجت تريد دار القصر وكان الحرّ قد خفت سورتهُ فلما صارت في الفراء مدّت ذراعيها كمن يروم الطيران في الفضاء من ذلك المكان . ولم تبغ في النزول استنشاق الهواء وانما ارادت بث بعض شكواها الى من يرثي لحالها ويرق لامرها ولم يكن لها في ذلك القصر الفخيم من تأنس اليهِ وتعتمد عليهِ الاّ اثنين من اتباع ابيها المخلصين لها وكلاهما محب لها خاضع لاوامرها يرى اطاعتها فرضاً ورضاها منّة ويتفانى في خدمتها والقيام على راحتها احدهما مرضعها في ايام الصغر وهي تصف عاقلة حكيمة والثاني حيرام احد عتقاء بيتها وهو الذي شملها بعنايتهِ بعد فقد ابيها فلما خشي ان تقع في الاسر احتال وهرب بها من دمشق فخبأها في بعض اودية لبنان حتى اذا ما امن الرقيب جاء بها وبالمرضع الى مصر واستصحب ابنهُ معهُ ليقوم بخدمة سيدتهِ ولما وصلوها وضمّ المقوقس نسيبتهُ الى اهل بيتهِ خيّر اتباعها بين البقاء في خدمتهِ او الذهاب الى حيث يشاؤون فطلبوا ان يلازموا قصرهُ قريباً من سيدتهم . وكان حيرام ماهراً في تربية الخيل عالماً بادوائها وعلاجها وسياستها فأقيم طبيباً بيطرياً في الاصطبل وكلف بابتياع ما يلزم من الخيل وآنست السيدة نفورس من المرضع حذقاً وبراعةً في الحياكة والتطريز فعينتها ناظرة على الحائكات من جواريها وكانت باولين تزورها كلما سنحت لها الفرصة فتجتمع عندها بحيرام و ينظر الثلاثة في خير الوسائل للبحث عن ابيها لانها لم تقنط من العثور عليهِ خصوصاً بعد ان تحققت ان جثتهُ لم تكن بين اشلاء القتلى وكانت لدن قدومها الى منف قد الحت على خالها بارسال الرسل وبث الارصاد والعيون لعلهم يعثرون على ابيها وتوسلت اليهِ ان لا تأخذهُ الشفقة على ثروتها بل ينفق ما شاء منها سعياً وراء تلك الغاية ولقيت من زوجتهِ شفيعاً لها لديهِ فاجاب طلبها وارسل كل رحّالة وخرّيت لديهِ واوصاهم ان يضربوا في انحاء سوريا ومصر ففعلوا لكنهم عادوا بخفي حنين ولم يقفوا على اثر للمفقود فعادت باولين تتوسل اليهِ ان يجدد البحث قاصرٌ على رفض سؤلها خشية ان تبدد ثروتها في طلب المحال وافهمها ان واجباتهِ كوصي عليها تقضي عليهِ ان يحافظ على مالها ثم اعاضها مما انفق في البحث من مالهِ الخاص فاعجبت ببروّتهِ وشهامتهِ وغيرتهِ على مصلحتها ولكنها لم تثن عن عزمها ولم تضعف همتها فباعت عقداً من اللؤلؤ كان لها وارسلت حيرام ثم اعقبتهُ بغيرهِ ولكن على غير جدوى

قلنا ان باولين سارت تريد مرضعها في تلك الليلة فتجاوزت المنزل الى دار الخدم حيث كان معملا الحياكة والصباغة وقلبها يخفق لئلاّ يراها احد الجنود او الاتباع فيفتضح امرها

وينكشف سرّها فشت الهوينا حذرة ترقب الحركات وتصغي الى اصوات الغناء والرقص واللعب وقد علت الضوضاء والجلبة فأخذت تتأمل في تصاريف الدهر واحكام القدر وقالت في نفسها اليس من العجب العجاب ان هؤلاء الجواري على ما يقاسين من مرارة الرقّ وما بهنّ من التعب والشقاء يجدن في الحياة لذة وحبوراً وانا ابنة رجل من اعاظم الناس واغناهم ونسيبة حاكم وادي النيل واحدى اهل بيته اعدّ الساعات والقلب بين القنوط والحزن والجزع. ثم خطت بضع خطوات الى الامام فرأت الحياكات والصباغات منهنّ مجتمعات تحت سقيفة من جذوع النخل وقد انقسمن فرقاً بحسب اميالهنّ ففرقة منهنّ تألبت في حلقة حول احداهنّ وقد انهمكت هذه في رسم الرسوم المضحكة على الواح الشمع والباقيات يتبعن حركات يدها بعين الاهتمام حتى اذا ما فرغت من الرسم عرضتهُ عليهنّ واخذت كل منهنّ تسمي اسم المرسوم فاذا كان احد النظار الغلاظ مشوه الخلقة تعالى ضحكهنّ وزادت جلبتهنّ تشفياً منهُ وكان في الطرف الآخر من السقيفة فرقة اخرى من تلك الجواري يلعبن لعبة معروفة في ذلك العصر وهي ان تجلس الجارية على قيد بضع اذرع من خطّ مرسوم على الارض وراءها ثم تدفع حذاءه الى الوراء فاذا اختار الخط تفاءلن انها ستتزوج من تحب عن قريب والاّ فاما ان تتزوج من لا تهواهُ او تظل عزباء الى زمان غير محدود فلبثت باولين تتأملهنّ وقد كادت تنسى ما اتت لاجلهِ ولما طال بها المقام وتعالت الجلبة والضحك غلب عليها الضحك ايضاً وكأنّ القنوط فسح مكاناً في فؤادها للسلوى فوقفت تضحك كالباقيات ثم حانت منها التفاتةٌ فرأت جارية لم ترَها من قبل وقد غطت رأسها بقناع تدلّى الى عنقها وجلست بمعزل عن الباقيات وبداها في حجرها وعلى وجهها سمات الحزن واليأس الشديدين فتأملتها باولين فرأت جمالاً بارعاً وبياضاً ناصعاً قلّ ان يكونا في مثلها من الرقائق . ومن خبر هذه الفتاة انها فاريا اسمها مانداقي وقعت وامها اسيرتين في قبضة اليونان في الحرب التي اثارها هرقل قيصر الروم على كسرى الثاني ملك الفرس فباعهما الجند من نخاسي المقوقس فصارتا في بيته ولم تكد الابنة تبلغ الثالثة عشرة حتى توفيت والدتها بعد ان رزحت تحت نير الرقّ الذي لم تعتدهُ فنشأت الابنة يتيمة في بيت المقوقس وكانت آية في الجمال واللطف والدعة فرآها اوريون قبل سفره الى القسطنطينية واعجب بها فلما درى بذلك بعض اتباعه الاخصاء نقلوها الى مصيف لابيه في العدوة الشرقية فكان يزورها هناك متى شاء ولم تستطع الفتاة على ضعفها وجهلها ان تصدهُ او تزجرهُ حتى احست امهُ بهما فامرت كبير خدمها ان يقتصّ من الفتاة على نمط يمنعها من اغواء الفتيان فصلم هذا اذنيها عملاً بعادةٍ قديمة عندهم فاثرت هذه القسوة في الفتاة تأثيراً عميقاً واصيبت من جرائها بالجنون

لكنها ظلت تعمل عملها بين الحائكات بسكينة حتى اذا ما فرغت من العمل عاودها الجنون فكانت تظن المقوقس زوجها فلما ابصرتها الجواري يسرعن اليها واتين بها الى حلقتهن ثم وقفن جميعاً وعلى وجوهن علامات السخرية والهزء وحيينها تحية الاماء لسيدتهن واخذن يسألنها عن صحة زوجها وعن احوال بيتها ويتوسلن اليها ويستعطفنها لكنهن امتنعن عن ذكر اسم اوريون رحمة بها الا واحدة منهن زنجية فانها قالت لها

— وكيف حال ابنك اوريون يا مولاتي فاجابت المسكينة

— لقد زوجتهُ من ابنة القيصر في القسطنطينية

— فاذاً لم يبلغك انهُ عاد الى منف واستصحب زوجتهُ معهُ وعن قريب ترينهما لابسين الارجوان وعلى رأسيهما تاجا الامارة . فلما سمعت الفتاة ذلك احمر وجهها وضمت يديها الى رأسها وقالت

— او عاد اوريون فاجابتها احداهن

— نعم , قد كان امس في السفينة يتنزه مع نسيبته اليونانية

— او تعنين اوريون الجميل

— نعم ابنك اوريون

فرفعت يدها ولطمت المتكلمة لطمة على فمها اسالت دمها ثم صرخت بأعلى صوتها

— اقلتن ان اوريون ابني لقد اخطأتن فهو ليس ابني ولكنهُ عشيقي وطالما سمعتهُ يقول ذلك لي ولذا صلوا اذني لكني لا احبهُ واتمنى ان ..... قالت هذا وجمعت يديها وحرقت اسنانها حتى سمع حريقها وعدت كالظليم وهي تصيح

— يا من يدلني عليهِ افليس بينكم من يرحم علي اني ساجدهُ فاين انت يا اوريون . ثم عمدت الى المصبغة واخذت تبحث بين الامتعة والخوابي والجواري يغربن في الضحك الى ان جاءت الناظرة وامرتهن بالانصراف الى مضاجعهن ولما ابعدت تقدمت باولين اليها فذهلت لهذه الرؤية سيدتها وبادرت فادخلتها الى غرفتها وبعد ان طافت غرف المنامة وتحققت ان الجواري جميعاً فيها ما عدا الفارسية عادت الى غرفتها وقد اوهمتن انها تبحث عن المجنونة

الفصل السابع

كانت غرفة المرضع غايةً في النظافة والاتقان والبساطة فسرير تدلّت عليهِ كلة بيضاء كالياسمين من النسيج الرقيق تقي النائم لذع البعوض وكراسي من الخشب مغشاة بشيء من الانسجة المصبوغة وعلى الارض حصير قش وفي النوافذ اصايص من الخزف غرست فيها انواع

الازهار يضوع اريجها فيطيّب الهواء فجلست باولين صامتة صمت المتأمل الحزين حتى عادت المرضع فقالت لها

— لقد رعبني قدومك اليّ في هذه الساعة من الليل فماذا دهاكِ

فخفّت باولين اليها وارتمت على عنقها تبكي وتنتحب حتى ابكتها وظلت كذلك حتى رأت المرضع ان البكاء ازال بعض غصتها وخفف كربها فقالت

— حسبك بكاء يا حبيبتي وكفاك نحيباً وهاتي حدثيني فلأمرٍ ما هجرتِ مضجعكِ وآثرتِ السهر على الرقاد . فاجابت باولين والعبرات تكاد تخنقها

— لقد ضاقت بي الدنيا على رحبها وباتت حياتي عبئاً ثقيلاً عليّ فماذا يفيد العيش كريماً يخشى غروب الشمس وانسدال الظلام ويبغي شروقها وطلوع النهار فقد عزمت على مغادرة هذا المكان ففيهِ شقيت وفيهِ اموت غماً

— ولكن يا حبيبتي ويل اهون من ويلين فهبي اننا تخلينا عن ملجإنا هذا وضربنا في مفازة العالم فما الذي نصادفهُ فيها

— اذا خرجتُ من منف فكل مكان خيمت فيهِ فهو بابل ولحصٌ وبئر ماء في ظل نخلتين في عرض الصحراء احبُّ اليّ من سكن هذا القصر المنيف ومعاناة الشقاء فيهِ

— ولكنكِ لم تكوني كذلك قبل امس فهل اعتراكِ ما يدّل رأيكِ فيهِ

— نعم فقد لقيت من ابن خالي الذي حسبتهُ اهلاً للحفاوة والاكرام ما كدّر صفاء عيشي وزاد في تعاستي ولا اراكِ تجهلين ما لهذا النتي من السلطان على القلوب فانهُ منذ يوم وصل شرع يهش لي ويبشُّ في وجهي ويتقرّب مني فاذا تكلم فانما يتكلم لي او نظر فالى وجهي او غنّى فلكي اسمعهُ وحدي . وانا احسبهُ صادقاً في حبهِ كريم النفس طاهر النية فاذا بهِ خدّاع واذا بي مغترة فقد كان يطارحني الحبّ وهو يعمل على عقد خطبتهِ على تلك الدمية كاترينا ابنة الارملة سوسنة فهي خطيبتهُ وعروسهُ

— يا ويلاهُ افلم يكفكِ ما انتِ فيهِ حتى فاجأكِ القدر بهذه الضربة ايضاً فاتكلي على عزّة نفسكِ وشممكِ ورفعة نسبكِ يكن لكِ منها عون على احتمال مصيبتكِ بالصبر وقد كان من الواجب عليّ ان اطلعكِ على دخيلة هذا الفتى وانبهكِ الى ما فعلهُ بماند في الفارسية ولكني احجمت ريثما اقف على امرهِ واعجم عودهُ بعد عودتهِ من الغربة وحسبتُ قلبكِ امينًا في مثل درع من الزرد فاذا بهِ كقلوب سائر الفتيات فانكِ احببتِ اول رجل طارحكِ الغرام

— ولكني لا احب اوريون الآن بل اكرههُ ولستُ اطيق احداً من بيتهم

— اصبت في كرهك له ولكن اخطأت في نفورك من اهل بيته فقد حاولوا التقرب منك منذ اتينا بلادهم فصدرتهم فما ظنك بمن يطلب مشاركتك في حزنك فيرى منك انقباضاً انهُ ليحسبك متكبرة متغطرسة ويتخى عنك واعلي انهُ يستحيل على المرء تبديل اخلاق غيره بحسب ما يشاء فلم يبقَ لنا اذاً سوى التسليم بالحالة الحاضرة والقناعة بما قسم لنا ولا عتب عليهم اذا تجنبوك ولم يأنسوا بك فان ما اصابك من الشقاء تركك عبوسة الوجه كئيبة المنظر واكثر الناس لا يروق لهم ذلك

— علي اني لم افه لديهم بشكوى ولم انبس ببنت شفة مما لاقيتهُ وما الاقيهِ

— وذلك عين الخطإ فلا تعاين ان في تعزية الحزاني لذة للمعزي او لم يخطر ببالك ان نفورك هذا والاصرار على كتم ما في نفسك خيبا آمالهم فالانسان ميّال بالطبع في مشاركة غيره في احزانهِ وهو يجد لذة في هذه المشاركة اما انت فقد حرمت انسباءك سروراً عظيماً فكانك تصرخين باعلى الصوت ابتعدوا عني فما بي حاجة اليكم ولو كنتِ تشكين امركِ الى خالك لكان لنا مفرج من هذا الضيق

— لقد هممتُ بذلك الف مرة ثم اعود فاحجم فاني كلما رأيتهُ شاحب اللون بارد الاطراف كاليت اشفقت ان ازيد في المهِ وكأن واحداً ختم على شفتي فلا تنفتحان أما وقد جرى ما جرى الآن فلا سبيل الى مخاطبتهِ في الامر

— حسناً فافعلي ما تشائين وثقي ان اوريون لن يتعدّى طورهُ بعد فتدرعي بالصبر وعزّة النفس فقد يأتينا الفرج من حيث لا ندري

— بربك هل اتاك نبأ عن ابي فقلبي يحدثني بقرب لقائهِ وقد اتيتك الليلة اتنسم اخبارهُ

— نعم فقد عاد النبطي الذي ارسلناهُ وارى بارقةً من الامل تلوح لنا ولكن سهلاً فما الذي اعتراك . فصاحت باولين اتمي الحديث وهاتي ما عند الرجل من الاخبار

— قد يكون نبأهُ كاذباً

— ولكن عجلي بهِ اكراماً لمجد الله

— اتاني حيرام فقال لي ان الرسول سمع عن زاهد منقطع الى عبادة الله في البراري وان هذا الزاهد كان قائداً عظيماً على اني لم اتمكن من مناقشة حيرام لضيق الوقت فغداً نقف على جلية الخبر منهُ

— ذلك ابي وافرحاهُ فلا تؤجلي الامر الى غدٍ رهيًا بنا الى حيرام فهو في الدار يصطلي مع سائر الاتباع

— مهلاً ولا تعلقي كبير امل على ما سمعت فقد يحدث ان يكون ذلك سراباً لامعاً تخدع بهِ و يعقبهُ خيبة الامل وليس من اللياقة ذهابنا الى الدار حيث الخدم والعبيد على اني ساوقظ ابن حيرام وارسلهُ في طلب ابيهِ فيوافينا الى هذا المكان

ولما جاء حيرام امرتهُ باولين باعادة ما جاء بهِ الرسول فكان ما سمعتهُ من المرضع وزاد عليهِ ان اسم الزاهد بولس وانهُ مقيم في جبل سيناء بين اخوانهِ العبَّاد الى ان قال والنبطي لا يأبى موالاة البحث عنهُ الى ان يعثر بهِ بشرط ان ننقدهُ مالاً معيناً قبل الشروع في العمل

فقالت باولين — ان الزاهد ابي فلمَّا نجا من المعركة وخال اني قُتلتُ في من قتل تخلى عن العالم وتزهد ثم تسمَّى باسم يذكرهُ بابنتهِ فاتوسل اليك يا حيرام ان لا تبطئ في البحث عنهُ بنفسك وساطلب الى خالي ان يأذن لك في الذهاب

فقالت المرضع — لقد سألنا خالك ذلك فامرنا بكتمان الامر عنك ريثما ينتهي حيرام من ابتياع الخيل اللازمة ولا يتم ذلك لهُ قبل اسبوعين فاذا اراد السفر بعدهما فهو مخيَّر فيهِ

— ولكن من يضمن لي البقاء في قيد الحياة اسبوعين افلا يذهب النبطي الآن

— نعم ولكنهُ يطلب مبلغاً طائلاً لقاء ذلك ولما كان عارفاً باللغات فقد اتخذهُ بعض التجار دليلاً ومترجماً لعائلتهِ فاذا لم نرغبهُ في العطاء فلا يتخلى عن عملهِ هذا ولهُ فيهِ كسب كثير

فقالت باولين — وما اجرتهُ

فقال حيرام — الفا درهم . فبهتت باولين وبدت امارات الحيرة في وجهها ثم صاحت

— ولكن مالي في يد خالي وساجبرهُ على اعطائي ما احتاج اليهِ والاَّ رفعت الامر الى القضاة . فقالت المرضع

— ولكنك لا تستطيعينهُ دون رضاهُ لانهُ وصيك وهب انك فعلت فقد تمضي الايام قبلما تفصل القضية فاصبري ريثما نستطيع ارسال حيرام . فاطرقت باولين ساعة ثم قالت

— ما انمس العيش وما امرَّ الحياة على ان الله لا يتخلى عني فقد وجدت منفذاً لنا فتعالى معي يا حيرام وانتظرني عند الباب الصغير المؤدي الى غرف النوم فعندي ما يسدّ حاجتنا ويبقى بعدهُ الوف فقد عزمت على بيع الزمردة التي في عقد امّي . فصاحت المرضع

— اتبيعين تلك الفريدة التي ورثتها عن الامبراطور تيودوسيوس وهي البقية الباقية من نفائس امرتك

— نعم ابيعها لهذا الغرض فان ابي شيخ فانٍ وقد اصابهُ في اثناء الحصار من الجراح وقاسى بعدهُ من التعب ما يذهب بالعمر فانفاسهُ معدودة والموت يترصدهُ فاذا اجلنا انقاذهُ كان في

ذلك التأجيل انصرام عمره فلا تحاولي ان تثنيني عن عزمي وانت ياحبرام فاذا اخذت الزمردة فاذهب بها غداً الى غالائيل الصيرفي وبعها منهُ باثني عشر الف درهم تنقد التبطي الفين منها وتبقي الرصيد في يد الصيرفي الى ساعة تحتاج اليهِ ستأتي البقية

فتح المكسيك

لا تذكر بلاد المكسيك ولا يذكر فتح الاسبانيين لها الاَّ خطر على بال قارىء التاريخ اسم كورتس القائد السفّاح الذي اجتاحها وهدم دعائم العمران الذي وصفناهُ في الاجزاء السابقة . وعلى هذا الرجل وافعالهِ مدار كلامنا في هذا الفصل والفصول التالية

ولد كورتس سنة ١٤٨٥ من بيت قديم يقال انهُ من نسل ملوك لميرديا وكان ابوهُ ضابطاً في الجيش مشهوراً بحسن السيرة وكذلك كانت امهُ من فضليات النساء . وبعث بهِ ابوهُ الى مدرسة سلامنكا ليتعلم علم الحقوق فلم يتعلم شيئاً سوى القليل من اللغة اللاتينية واتقن الكتابة والانشاء في لفتهِ وشبَّ شكس الاخلاق كثير المشاكل على غير ما يريدهُ ابواهُ ومال الى الانتظام في سلك الجنود واقتحام المخاطر . وكان الاسبانيون قد اكتشفوا اميركا وطمحت نفوس شبانهم اليها لما فيها من اقتحام الاهوال وجمع الغنائم الكثيرة فدخل سفينة من اسطول ذاهب اليها اوالى الجزائر الهندية كما كانت تسمى وعمرهُ ١٩ سنة حتى اذا بلغ الاسطول جزائر كناري اسرعت السفينة التي كان فيها تاركةً الاسطول لكي تصل قبلهُ الى هسبانيولا لكن العواصف كسرت سواريها فاضطرَّت ان ترتد على عقبها وتسافر مع الاسطول كلهِ ثم تركتهُ قاصدة ان تسبقهُ الى هسبانيولا فسبقها اليها وباع شحنهُ قبل وصولها

وكان كورتس يعرف والي المدينة فمضى اليهِ فوجدهُ غائباً لكن وكيلهُ رحَّب بهِ وقال لهُ ان الوالي يعطيك ما تشاء من الاراضي الزراعية فقال اني لم آتِ لافلح وازرع بل لاجمع الذهب . ثم جاء الوالي واقنعهُ ان حراثة الارض اربح لهُ من اقتحام الاهوال ومنحهُ ارضاً فسيحة وكثيرين من الجنود ليقوموا لهُ بزراعتها لكنَّ الطبع غلاَّب فكان كلما رأى الجنود تخرج لاخماد ثورة الاهالي يخرج معها و يشاركها في الاعمال البربرية التي سوَّدت وجه اوربا

وسنة ١٥١١ خرج القائد فلاسكث الاسباني لفتح كوبا فخرج كورتس معهُ وابدى من الهمة والبسالة ما اعجب بهِ رئيسهُ ومن الكياسة والظرف ما حبَّبهُ الى الجنود . وفتح فلاسكث جزيرة كوبا وجُعل والياً عليها فقرَّب كورتس وجعلهُ من كتَّابهِ ثم انقلب عليهِ كورتس بعد